

الاستشراق ودوره في تحقيق المخطوطات

د. عابد بوهادي

جامعة ابن خلدون - تيارت

يرى بعض الباحثين في الموضوع أن نشأة الاستشراق إنما بدأ منذ أن استصفى نابليون أموال الكنيسة في إيطاليا وأقل منشآتها واستولى على المدرسة المارونية (1798) التي ظهرت بأمر البابا غريغوريوس الثالث عشر عام 1584. «ثم تأسست مطبعتها الشرقية (1653)، حيث اختار بعض طلابها محققين في المطبعة أو تراجمة في جيشه، فانضموا إلى حملته.

ويرى الباحث اللبناني المعاصر نجيب العقيلي أنه اختيار منهجي يهدف إلى تأليف حلقة اتصال بين المشرق والمغرب وقد استثمره الفاتيكان وبعض ملوك أوروبا وأمرائها في جامعاتهم ومكتباتهم ومطابعهم، فعلموا اللغات الشرقية وجمعوا مخطوطاتها وفهرسوها وترجموا النفيس منها، فعاونوا بذلك على تعريف الشرق في الغرب، لغات وديانات وشرائع ثقافات وحضارات الخ..⁽⁵⁸⁾.

غير أن الدراسات النقدية للاستشراق؛ تؤكد في الكثير مما يتعلق بمجال تحقيق مخطوطات تراثنا العقلي أن ما قد يبدو تنويراً ثقافياً في عمل المستشرقين، هو في الواقع ظاهرة معكوسة كما أشار إلى ذلك مالك بن نبي في حديثه عن تنمية شخصيته الفكرية حيث قال: «والجيل الذي أنا منه يدين له بذلك النصيب على الأقل في المحافظة على شخصيته الإسلامية. اكتشفت ، وأنا بين الخامسة عشر والعشرين من العمر، أبحار الحضارة الإسلامية في ترجمة دوسلان لمقدمة ابن خلدون وفيما كتب دوزي عنها وأحمد رضا بعد الحرب العالمية الأولى. وإنني على إدراك تام لما أدين به لهذه المطالعات».⁽⁵⁹⁾

فاعتراف المفكر الجزائري مالك بن نبي بقيمة الاستشراق، لم يمنعه من نقده بعد ذلك، عندما يريد توضيح قيمة الوعي التاريخي بمشكلاته، وذلك لأن الافتخار بأبحار الماضي في زمن الاحتلال له ما يبرره في مقاومة الاستلاب الثقافي وبناء الشخصية، غير أنه يصبح بمثابة الأفيون أو المخدر لأنه يبعدنا عن حقائق العلم. يضيف قائلاً: « فالأدب الذي ينشد عصر الأنوار للحضارة الإسلامية يؤدي هذين الدورين: أنه أتاح - في مرحلة معينة- الجواب اللائق للتحدي الثقافي الغربي وحفظ هكذا مع

⁽⁵⁸⁾ ينظر، نجيب العقيلي في عمله الموسوعي «المستشرقون».

⁽⁵⁹⁾ مشكلات الحضارة ، لمالك بن نبي، ص

عوامل أخرى على الشخصية الإسلامية، ولكنه من ناحية أخرى، صب في هذه الشخصية الإعجاب بالشيء الغريب ولم يطبعها بما يطابق عصر الفعالية والميكانيك».⁽⁶⁰⁾

وفي ضوء هذا السياق النقدي تغلبت أطروحة أن الشرق والغرب لا يلتقيان على المسألة القائلة بوحدهما؛ لأن تطور هذه المعرفة اعتمد على ما سُمّي بالمركزية الغربية.

بالرغم من الاختلاف القائم بين الدارسين حول قيمة التنوير الثقافي للاستشراق، فإنه لا يغيب على أحد ما كان للاستشراق من دور فعال في مجال تحقيق المخطوطات في تراثنا العربي الإسلامي. وقد يكون من الحكمة أن نراجع تاريخ هذا الدور، وبخاصة بعد نهضة علم الاستغراب الذي يعتبر العلم المضاد له، وهو تاريخ تتميز فيه اتجاهات مختلفة.

ولعلنا نجد في ذلك ما يبرر شرعية التساؤل عن عوامل التقدم العقلي في تصنيف الموضوع إلى نوعين على الأقل هما:

أ - الاستشراق السياسي.

ب - الاستشراق العلمي.

أ - الاستشراق السياسي

قد يكون من الطبيعي أن يتساءل المهتم بموضوع الاستشراق عن الفائدة التي يجنيها أولئك الأجانب من تخصيص جهودهم في دراسة القضايا الدينية والتراثية والتاريخية والاجتماعية للشرق؟ فإذا كان الغرض من الاستشراق هو مجرد طلب لدراسة ما في الشرق، فما الغاية من هذا الطلب؟ ولعلنا نجد في مقدمة كتاب (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية) الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج، الجواب بصورة واضحة، خاصة إذا علمنا أن هاتين الهيئتين قصدتا بعملهما هذا «تصويب الأخطاء التي وقع فيها بعض المستشرقين الذين عاجلوا موضوعات الفكر الإسلامي، ومقومات الحضارة العربية الإسلامية وتراثها الأدبي والعلمي والأخلاقي والسياسي في لغاتهم، فأساءوا تقديمها لقرائهم، وحرّفوا مقولاتها، وشوهوا صورتها، عن قصد مبيّت حيناً، وعن جهل وسوء فهم أحيان أخرى».⁽⁶¹⁾

⁽⁶⁰⁾ المرجع السابق، ص:

⁽⁶¹⁾ مشكلات الحضارة، لمالك بن نبي، ص

قد يقول قائل أن الأمر يتعلق بفئة من المستشرقين التي عملت في الدوائر السياسية، والتي لم تنظر إلى الاستشراق كنظام أكاديمي، بل كنظام « سياسي ومصطلح تاريخي يعنى بالشرق والإسلام والمعلومات المتوفرة عن الإسلام في الغرب، للتمكن من سياسة المسلمين والتحكم فيهم».⁽⁶²⁾

وهذه المجموعة هي استمرار لتخريب هولاكو الذي جعل من المجلدات جسراً لعبور خيوله بين شاطئي دجلة، وما أتلفه الصليبيون في « طرابلس وحدها يقدر بثلاثة ملايين مجلد » بالإضافة إلى إحراق منظمة الجيش السري في 7 جوان 1962 لمكتبة الجزائر وإتلاف 600 ألف عنوان.

غير أن ما يراه بعض الدارسين مثل عبد الرحمن بدوي (1917 - 2002) يشككون في هذه الروايات. ويرون أن هذه الممارسات كانت سبب تعميم الأحكام على الاستشراق إلى درجة انعدام دراسة دقيقة ، تقوم على حصر أعمال المستشرقين، في مجال تحقيق التراث ونشره ... وإلى أن تتم هذه الدراسة، سيظل الحديث في هذا المجال (عمل المستشرقين) قائماً على الحدس والتخمين، يعتمد أحكام متسرفة ويتأثر بأهواء مزاجية وصلات شخصية ومواقف نفسية، تجذبه من هنا وهناك⁽⁶³⁾

وعلى هذا الأساس كان موقف محمود قاسم (1913 - 1973) عندما فسر العلاقة الاستعمارية بالفكر الاستشراقي حيث رأى أن الاستعمار الفرنسي استطاع بجزبروته وتعسفه أن يفرض لغته على الكثير من المثقفين في الجزائر وشمال إفريقية، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيراً من العقيدة الإسلامية، رغم ما بذله المختصون في شؤون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية، عن طريق تمجيد وإشاعة الأكاذيب والأباطيل على نحو ما نراه في مؤلفات لويس (ماسينيون)⁽⁶⁴⁾، كما رأى أن ماسينيون ما كان يُعنى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط استعماري أحكم صنعه، حتى يعمق الهوة بين طائفتين توجد بالجزائر: طائفة تتمسك بالقديم، فتتساق، حسب ظنه، إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهلديانات هي صميم الإسلام، وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية والزراية بهذه الخرافات، بل من الإسلام كله...⁽⁶⁵⁾

⁶² مشكلات الحضارة ، لمالك بن نبي، ص

⁶³ المرجع السابق ، ص:

⁶⁴ ينظر، محمود قاسم، في كتابه حول الامام ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ألفه بعد نكسة 1967 حيث تحدث عن التصوف الكاذب وما خصه ماسينيون من حياته للكتابة عن الحلاج حتى جعله صورة من المسيح في الإسلام.

⁶⁵ مشكلات الحضارة ، لمالك بن نبي، ص

وكان هذا التقسيم للمجتمع الجزائري يبرئ سياسة التجهيل الاستعمارية، وينصف الاستيطان بجرائمه وقوانينه الجائرة، وقد كان لويس ماسينيون مستشارا بوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون الشمال الإفريقي، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى.⁽⁶⁶⁾

فكيف تساهم مثل هذه الوظائف في تكوين جزائريين بثقافة حديثة؟ وهذا ما يدعونا إلى مراجعة النقد الموجه للاستشراق، خاصة عند أولئك الذين اعتمدوا آراء بعض المستشرقين من القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وقد يبدو هذا الموقف مسألة ضرورية في فهم الاستشراق وتبيان أغراضه وأهدافه. وقد لا يكون هذا التفسير محل إجماع، ولكنه يبيّن لنا على الأقل أن الاستشراق أنواع مختلفة باختلاف اللغات الأوروبية، فمنه الإنجليزي، والفرنسي، والألماني، والإسباني، والروسي، وغيرها، وبعض هذه الثقافات لم تكن في الدائرة الاستعمارية وانتصرت للرؤية العلمية التي وجدت حسب البعض مع المجادلة التعليمية بالهند، حيث كان المستشرقون هم الذين نادوا بالتعليم والأدب الهنديين، بينما كان معارضوهم يرغبون في أن تكون الإنجليزية هي أساس التعليم بالهند...⁽⁶⁷⁾

ب- الاستشراق العلمي

مجال الاستشراق العلمي (الفكري) واسع يشمل جميع ميادين المعرفة، فهو ظاهرة تاريخية ارتبط وجودها بتطور العلوم الإنسانية والاجتماعية التي انتصرت لمبدأ التعاطف لفهم عادات وأخلاق وأفكار الشعوب التي تكون موضوع الدراسة، ولعل من شروط هذه المعرفة هو امتلاك أدوات التواصل اللغوي وأحيانا الممارسة العقائدية، إلا أن تطور الترجمة ووسائل الاتصال ونقل المعلومات، وما آل إليه الدور الاستشراقي من تراكم كمي في ترجمة تراثنا، جعله يتطور نحو الإسلاميات، لأن المهتمين بالفكر الشرقي، وبالتحديد بالحضارة العربية الإسلامية اليوم نادراً ما يعرفون اللغة العربية، وعلى هذا الأساس، تأتي الدعوة إلى الحوار مع الاستشراق المعاصر، لأن الرهان الحقيقي هو امتلاك المعرفة وليس تصنيف هؤلاء على أساس ديني باعتبار أن هذا المستشرق متعاطف مع الإسلام وذاك معادٍ له، ونحن نعلم مسبقاً أن تكوينه العلمي يهدف أول ما يهدف إلى خدمة مشروعه الثقافي، على نقيض ما تعمل به بعض مراكزنا ومعاهدنا في تنمية ثقافة الآخر ولغاته كحلقات تابعة وليس كوجود منفعل وفاعل لتطوير ذاتها العلمية. يقول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون:

⁽⁶⁶⁾ مشكلات الحضارة، لمالك بن نبي، ص

⁽⁶⁷⁾ مجادلة حسمها تقرير ماکولي الشهير سنة 1743

إن الدراسات الاستشراقية اليوم معظمها دراسات جادة، وليس أمامها أي خيار آخر من أجل إثبات وجودها العلمي ومصادقيتها عند الباحث المتخصص أو القارئ إلا باتباعها منهجاً علمياً دقيقاً يتوخى تقديم الفائدة والكشف بعيداً عن الميول الدينية المسيحية أو اليهودية وتعصبها تجاه المجتمعات ذات الانتماء الديني المخالف، وإن الدراسات الاستشراقية الحديثة التي كتبها جيلي أو الجيل اللاحق من المتخصصين المعنيين بشؤون الشرق العربي الإسلامي لم تكن سوى دراسات تتوخى الكشف العلمي بصدد الموضوع الذي تناوله. وإن كان هناك شيء « تنتقد » بسببه، فهو انطلاقاً من نظرة مسبقة أو رؤية غربية للعالم دون أن تكون هذه النظرة ذات تعصب أو مراهنة على حيادية البحث العلمي⁽⁶⁸⁾.

ومهما وجهت من تهم للاستشراق والمستشرقين، فلا بد من إنصاف بعضهم، وخصوصاً أولئك الذين أدوا للتراث العربي والإسلامي خدمات جليلة سواء بأبحاثهم العلمية القيمة وتحقيقاتهم للتراث واكتشاف مصادره ووضع فهارس مهمة يستفيد منها القارئ العربي والغربي في أبحاثه ودراساته. يقول إدوارد سعيد: « الاستشراق هو عبارة عن رد الفعل الغربي اتجاه الشرق. وهو أمر له جذوره في السياسة، ولكنه مع ذلك يعتبر ظاهرة ثقافية »⁽⁶⁹⁾.

ويرى المستعرب الإسباني بيدرو مارتينيت مونتانييت أن شخصية المستشرق هي شخصية مزدوجة. وهذا الازدواج الوظيفي النفسي ما يزال حتى الآن، لأن المستشرق هو شخص يريد أن يعرف حضارة مختلفة، حضارة بعيدة عنه. ولا شك أن هذه لها أصولها وخصوصيتها ومميزاتها. فعليه إذاً أن يتقمص هذه الحضارة، هذه الثقافة المختلفة البعيدة عنه⁽⁷⁰⁾.

كان الأوروبيون على اتصال بالشرقيين منذ العصور القديمة التي شهدت ميلاد أولى العلاقات التجارية والسياسية بين أوروبا والشرق. وبحكم قانون التطور ونمو الحاجات العلمية وظهور حركات التبشير، توثقت هذه العلاقات في العصور الوسطى أكثر من السابق. ومن ثم دخلت طوراً جديداً مع ظهور الرأسمالية في أوروبا التي أصبحت بحاجة متزايدة إلى الشرق وخيراته، فغدت معرفة دقائق الأمور المتعلقة بشعوب هذه الرقعة الحساسة من العالم مهمة ضرورية فرضت ظهور علم قائم بذاته على صعيد القارة الأوروبية عرف بالاستشراق الذي استهدف دراسة تاريخ شعوب الشرق واقتصادياتها

⁽⁶⁸⁾ ينظر حوار أجراه معه مندوب مجلة رسالة الجهاد الليبية بفرنسا، عدد 70، 1988، ص. 59.

⁽⁶⁹⁾ ينظر، لقاء معه في جريدة الجزيرة السعودية، عدد 19/ 11/ 1983، ص. 10.

⁽⁷⁰⁾ ينظر، حوار معه في مجلة الموقف الأدبي السورية، عدد 122، ص. 97.

ولغاتها وفنونها وعاداتها ودياناتها وفلسفتها وغير ذلك من المواضيع. فيكون الاستشراق بذلك وليداً
شرعياً للنظام الرأسمالي واستجابة ضرورية لمتطلباته، وليس مجرد صدفة كما يعتقد البعض⁽⁷¹⁾ وظهر
بصفته حقلاً علمياً مستقلاً في القرنين 16 و 17 م. والاستشراق بما هو علم إنساني هو بدوره امتداد
لبقية العلوم الإنسانية التي ولدت في الغرب. إنه «نحن» في أوضاع تاريخية، وصور اجتماعية وممارسات
حياتية لدى «الآخر» الذي يعبر عن وجودنا بلغة هي شبكة من العلاقات الاجتماعية والسياسية
والتاريخية، هو وجود ليس كما نبتغي. ربما. أو يمثل صورة مغايرة لتصوراتنا، لطريقة تفكيرنا في الوجود،
لطبيعة انفعالاتنا.

إنه «الآخر» الذي يهتم بأمرنا، بموضوع يشغلنا، يعري حقيقتنا، يكشف أوراقنا، يستنبط أسرارنا التي
نحب إبقائها مطمورة، لأنها تشي بضعفنا، بخواء أساليبنا في الحياة، محددات لغتنا في التفكير،
حدود قاماتنا الحضارية، كيفية ممارسة حواسنا لوظائفها، إنه «الآخر» الذي يصحح مسارنا دون أن
ندري، أو ندري ذلك عند التمعن⁽⁷²⁾ ولهذا لا نستطيع أن نقيم ستاراً حديدياً بيننا وبين هذا
«الآخر» (المستشرقون). فلا مفر إذن من أن نباريهم في ميدان هو أخص الميادين بنا، لأنه من
صميم ثقافتنا، حتى نعود سادته ومعلميه. فإن لم نفعل، فلن يكون أمامنا إلا واحدة من اثنتين: إما
أن ننزل ونتحجر كسائر الحضارات التي عجزت عن مواجهة التحديات الجديدة بالإبداع المستمر،
وإما أن نمتص ونذوب. فلننظر إلى مقدار ما نترجمه من أبحاث المستشرقين، ومقدار ما يترجمه
المستشرقون من أبحاثنا... ولننظر كم من الكتب والمقالات حتى لصغار المستشرقين، ترحم إلى اللغة
العربية... لتعرف بأن أبحاثنا ما زالت بوجه عام دون أبحاثهم في القيمة العلمية⁽⁷³⁾

منهج الاستشراق

لا شك أن المنهجية الاستشراقية تنطلق في نظرها إلى الشرق من اعتبار سياسي بالأساس، مفاده أن
المستشرق يحاكم منطق الشرق بكل ما يحمله من موروث، ومن ثم يبدأ إعادة إنتاجه وصياغته في
ضوء المنهجية الغربية في الرؤية إلى الشرق، ومن زاوية خارجية تجعل أسرار الشرق وتبعاته واضحة
للغرب ومن أجله⁽⁷⁴⁾

⁽⁷¹⁾ ينظر، «هل الثقافة الغربية منبعها عربي؟»، مجلة الوطن العربي، عدد 40، صص. 60 . 62.

⁽⁷²⁾ ينظر، إبراهيم محمود، «محاكمة ماركس استشراقياً»، مجلة الطريق، عدد 6، 1990، ص. 104.

⁽⁷³⁾ ينظر، إبراهيم محمود، «المرجع السابق»، ص. 104.

⁽⁷⁴⁾ ينظر، شكري محمد عياد، «المستشرقون»، جريدة الرياض السعودية، عدد 21 / 3 / 1985، ص. 15.

والمستشرق هو المراقب الموضوعي، لأنه يرى دون أن يكون شرقياً، وإن كان بفضل الكتب، وكتب المستشرقين الآخرين بشكل خاص، بما هي مادة «مراقبة» على الأحداث التي تزج موضوعيته. فالمستشرقون يكتبون للأوروبيين ما يريدون قراءته من ناحية، وما يحتاجه الشرقيون لفهم أنفسهم ومعرفة ذواتهم، فيصبح وجود المستشرقين شرعياً ومبرراً في عملية إحلال صوت المستشرق مكان صوت الشرقي. هذا هو لب عملية الاستشراق: إقصاء الشرقي عن المسرح الذي يتم فيه تمثيله؛ فلا صوت له إلا الذي أريد له (75)

ويرى الدكتور إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" أن الاستشراق ليس مجرد مذهب إيجابي حول الشرق يوجد في وقت واحد محدد في الغرب، بل هو كذلك تقليد جامعي ذو تأثير (حين يشير المرء إلى مختص جامعي يدعى مستشرقاً)؛ كما أنه إقليم للاهتمام يحدده الرحالة، والمشروعات التجارية، والحكومات، والحملات العسكرية، وقراء الروايات ومسارد المغامرات الغريبة المدهشة، والمؤرخون الطبيعيون، والحجاج الذين يمثل الشرق لهم نمطاً مخصصاً من المعرفة حول أماكن وشعوب وحضارات معينة.

وقد أصبحت العبارات الجاهزة المتعلقة بالشرق كثيرة الحدوث، وتجدرت هذه العبارات بقوة في الإنشاء الأوربي. (76)

لقد حيكت صورة الشرق والإسلام بوجه خاص في ذهن الرجل الأوربي من خيوط الجهل والتعصب والتجني، حتى حفل التراث الأوربي بسوء فهم الشرق وسوء تصويره، ولم يفتن رواده إلى أن البشرية واحدة، وأن للحضارات والأديان أسساً ومثلاً واحدة، وأن القلوب واحدة مهما تعددت واختلفت الألسنة والألبسة والألوان والمعتقدات (77) ويسبب سوء النية في استخدام مصطلح الاستشراق بسبب ألوان التحامل التي سادت استخدامه، أصبحت الإشارة إليه مثيرة للمشاعر، مستفزة لقوى العقل لدى الكثير من المهتمين به، بل أصبح الاستشراق بسبب سوء استخدامه «بعبعاً» مخيفاً لدى هؤلاء. ولهذا يتم تحديد الاستشراق مباشرة حين يكون هناك تحديد لأصوله في مقابلة مع مستشرق ما. وليس هناك مستشرق لا تنتابه مشاعر خاصة، حين يبدأ في الحديث عن الاستشراق، وذلك نتيجة

(75) ينظر: خير الله رشك سعيد، «الاستشراق»، مجلة دراسات عربية، عدد 9، السنة 26، ص. 106.

(76) ينظر، نبيل بهيم، الاستشراق: علم موضوعي أم سياسة مقنعة؟، مجلة الطريق، عدد 5، 1981، ص. 155.

(77) ينظر، إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق"، ص. 215.

البلبلة وعملية خلط الأوراق التي تمت باسمه وداخل فضائه بعضها مع بعض. وقد حاول العديد من المستشرقين التهرب من هذه الصفة⁽⁷⁸⁾

ويرى الدكتور محمد أركون في تقييمه لثقافة المستشرق، أن المستشرقين الذين يكتبون لا يستطيعون الإفلات من التضامن مع الثقافة التي يكتبون فيها والتي كبروا في ظلها، وهي الثقافة العربية⁽⁷⁹⁾ وعلى العموم، فقد انصبت اهتمامات المستشرقين على دراسة الإسلام بشكل جاد وعميق ودرسوه من عدة زوايا وجوانب، بل إنهم أوجدوا المختصين في كل جانب من جوانبه، ومن ثم انطلقوا حوله بأساسيات ثابتة حددت بمسار تفكيرهم. ولا بد من الإشارة هنا إلى أعمال بعض المستشرقين الكبار الذين ساهموا مساهمة فعالة في خدمة التراث العربي الإسلامي، فأخرجوه من بطون خزانات المخطوطات المنسية للمحافظة على قسم منه وإحيائه ونشره، مما ساهم ويساهم في إغناء ثقافة البلدان التي يعيش هؤلاء المستشرقون بين طهرانها، علماً بأن ما أنجزه هؤلاء من كتب وأبحاث عن ديننا وتراثنا في الفترة بين 1800 و1950 م يقدر بنحو ستين ألف كتاب (60.000). أضف إلى ذلك ما أنجزوه منذ سنة 1950 إلى اليوم!! إذ عرفت حركة الاستشراق تطوراً، وذلك تمشياً مع طبيعة المرحلة والوضع الجديد الذي تشهده الأمة العربية الإسلامية. واختلف غرب القرن الثامن عشر والتاسع عشر عن غرب النصف الثاني من القرن العشرين اختلافاً شديداً، وتغير الرأي الذي كان سائداً بين المستشرقين في القرنين الماضيين والذي كان قائماً على العصبية وإنكار فضل العرب ودورهم في الحضارة الإنسانية، فقد عصفت بهم التعصب الأعمى. إلا أنه لا يجب إنكار ما قام به بعضهم الآخر من مجهود جبار في خدمة العرب حضارة وثقافة وفكراً، ومسحوا غبار الإهمال والنسيان عن كثير من آثار التراث العربي الإسلامي.

المستشرقون والتراث الإسلامي

ليس الهدف هنا هو الدفاع عن المستشرقين، وإنما الغاية هي قبل كل شيء إبراز الحقيقة والوقوف على بعض الجوانب الإيجابية في أعمال هؤلاء، وينبه الدكتور حسين مؤنس إلى حقيقة هامة، وهي أنه منذ زمن بعيد نجد نفراً ممن لا يقرؤون الكتب الغربية في لغاتها يصرون على أن كل ما كتبه المستشرقون عنا تحامل وعصبية حتى ثبت في أذهان بعض قرائهم أن كل مستشرق عدو، وهذه فكرة خاطئة. فإن الكثيرين جداً من المستشرقين منصفون، وقد قالوا الحق كما تصوره. حقيقة، هناك ناس متحاملون؛

⁽⁷⁸⁾ ينظر، حسن جوادي، «صور غريبة للعرب»، مجلة حوار اللبنانية، عدد 5، 1963، صص. 5-6.

⁽⁷⁹⁾ ينظر، مجلة الطريق، المرجع السابق، عدد 6، 1990، صص. 106-107.

ولكن إلى جانب هؤلاء، هناك علماء أجلاء لا يستطيع الإنسان إلا تقديرهم واحترامهم. وإذا وجد المسلم في كتاباتهم ما لا يرضيه، فليس من الضروري أن يكون ذلك صادراً عن سوء نية، بل هذا هو الحق كما رآه. وما دام قد صدر في ما يكتبه عن إخلاص، فنحن نحترم رأيه وإن لم يُرضنا. ولا ننسى كذلك أن أولئك المستشرقين خدموا لغتنا وعلومنا خدمات جليلة. ويكفي أننا تعلمنا منهم تحقيق النصوص.

ومهما كان في آرائهم مما لا يرضينا، فهي آراء لا تنقص من قيمة الخدمة التي قاموا ويقومون بها. ويذكر حسين مؤنس طائفة من المؤلفات التي لا يجوز التقليل من شأنها، منها كتاب آسين بلاثيوس عن ابن حزم وكتابه في "الأصول العربية للكوميديا الإلهية لدانتي"، و"قاموس العربية المعاصرة" لهانزفير، ودراسات شارل بيللا عن الجاحظ، وما نشر من نصوصه، وكتاب مونتجمري واط عن سيرة الرسول (ص)، ومجموعة من الدراسات عن تاريخ الإسلام وحضارته، ومؤلفات ليفي بروفنسال عن التاريخ الأندلسي، وكتاب يوسف شاخنت عن أصول التشريع الإسلامي وغيرها من المؤلفات الكثيرة التي اهتمت بالعرب والإسلام⁽⁸⁰⁾

أما الدكتور عبد الرحمن بدوي، فيرى أن الاستشراق أدى مهمة في غاية الأهمية ... للدراسات الإسلامية والعربية، وخصوصاً في فترة كان العرب فيها في غاية التخلف والجهل بحضارتهم وعلمائهم وإنتاجهم القديم. واستمرت هذه الحركة تقريباً حتى قيام الحرب العالمية الثانية، ثم بدأت حركات في العالم العربي - الإسلامي توخى أصحابها القيام بنفس المهمة التي حمل عبئها من قبل المستشرقين. ولما كانوا قد وجدوا أن بعض هؤلاء المستشرقين قد طغت عليهم منازع قومية أو دينية أفسدت أحكامهم، فقد كان من الضروري أن يقوم بعض العرب بالتصدي لهذه الأحكام. وهذا ما فعلته أنا مثلاً في ما يتعلق بالقرآن وسيرة النبي (ص)، في كتابي بالفرنسية "دفاع عن القرآن ضد منتقديه" سنة 1989 م و"دفاع عن النبي (ص)، ضد المفترين عليه" سنة 1990 م. هذا ضروري، خصوصاً وأن المتصدين للأمور الدينية في البلاد الإسلامية عاجزون كل العجز عن القيام بهذه المهمة لنقص ثقافتهم، وتحجر في عقولهم وجهلهم باللغات الأساسية التي كتبت بها الدراسات الاستشراقية الرئيسة⁽⁸¹⁾

⁽⁸⁰⁾ ينظر، حوار مع محمد أركون، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 20، 21، ص. 82.

⁽⁸¹⁾ ينظر، «كتب كثيرة عنا»، مجلة العربي، عدد 66، 1966، صص. 13، 19.

وعلى العموم، فإن الاستشراق ليس شرّاً كله كما يعتقد البعض، وليس خيراً كله، لأن جزءاً كبيراً منه تم إنجازه في الفترة التاريخية التي جثم فيها الاستعمار الغربي على صدورنا. ولكن الاستشراق - بحيره وشره - معروض أمام عقولنا وأبصارنا، وتبقى علينا مسؤولية استخلاص الجيد والاستفادة منه وطرح الرديء والتخلص منه. ويرى الدكتور محمود حمدي زقزوق أن الاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي: فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلاً ويلعن كل من يشتغل به بوصفه عدوّاً لدوداً للإسلام والمسلمين.

والواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد. ولهذا، فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة. إننا لو فعلنا ذلك، لكننا كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال. ولهذا ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج واقتراح الحلول.

وهكذا نجد أن موضوع الاستشراق يفرض نفسه علينا بإلحاح ويتطلب منا وقفة تأملية جادة لبحثه ودراسة أبعاده وتأثيراته في الإسلام والمسلمين. وهناك من غير شك بعض الجهود العلمية القيمة في هذا الصدد من جانب بعض المسلمين، وهي جهود لا يجوز التقليل من شأنها أو تجاهلها⁽⁸²⁾

ويرد المستشرق الفرنسي أندري ميكيل على الانتقادات التي توجه إلى الاستشراق، فيقول: «أقول بكل نزاهة وفي إطار ما أكنه من ود وحب وصداقة للعرب: إنكم لا يمكن أن تستمروا في إعادة القول - خلال عشرين سنة أو خمسين سنة القادمة - إن كل ما ينتج من إنتاج في عالم غير عالمكم هو إنتاج سيء دون أن تقترحوا أنتم مناهج جديدة وبدائل جديدة... تستطيع أن تثبت على أرض الواقع، إن كل ما هو موجود من مدارس وأبحاث وإنتاج في الغرب غير ملائم وسيء، إن النقد الصادر عن المثقفين العرب له ما يبرره وبدون جدال، وقائم على خلفيات فكرية وتوجهات قومية، ولكن أي نقد لا يمكن أن يثبت ويصمد إلا إذا كان صمودهم يعتمد على الإنتاج على الخلق والابتكار، وهذا هو الإطار الذي ينبغي أن نحدد فيه سيرنا وتصوراتنا ومفاهيمنا»⁽⁸³⁾

ويجدر بنا هنا أن ننوه بمجهودات بعض المستشرقين في مجال الدراسات الإسلامية أمثال: آسين بلاثيوس وجاك بيرك ومكسيم رودنسون وأندري ميكيل وغارسيا غوميث وبوكاي وجارودي وبروكلمان وغوستاف لوبون وتوماس أرنولد - وما أطول حلقات السلسلة! يشهدون للإسلام بمطابقته للعلم وللمسلمين بملكاتهم الفكرية والعلمية ومساهماتهم البناءة في تشييد الحضارة الإنسانية.

.....

⁽⁸²⁾ ينظر، حوار معه أجراه كاظم جهاد في: مجلة الكرمل، عدد 43، 1991، ص. 124.

⁽⁸³⁾ ينظر، «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري»، مقدمة "كتاب الأمة"، عدد 5، قطر، ص. 14.

المستشرق ميكلوش موراني وتحقيقاته لكتب السادة المالكية جزء " تفسير القرآن " و كتاب "المحاربة" لابن وهب المالكي نموذجاً- دراسة نقدية لنقد الأستاذ تامر الجبالي عليه -

حينما أتم المستشرق الروسي "كراتشكو فسكي" كتابه الموسوعي: "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"⁽⁸⁴⁾ علّقت الدكتورة عائشة بنت الشاطيء عليه بالقول: "إننا مدينون للمستشرقين بجمع ذلك التراث وصونه من الضياع، وتسألون: وماذا لو تركوا تراثنا لنا، أما كنّا أهلاً لجمعه وصونه ؟ فأجيئكم بماء يقيني: كلا ... لقد كنّا في غفلة عنه، لا نكاد نحس وجوده أو نعرف قيمته، أو نقدر حاجتنا إليه. إن خُذّام دور العبادة عندنا يبيعون أوراق نفائسه بالكوم (بالجملة) لتجار الحلوى والبقول!".

و تضيف قائلة: "...إن جهود هؤلاء لم تقف في جمعهم لكتب تراث الشرق على مجرد اقتنائها، بل فهرسوا ما جمعوه فهرسة علمية دقيقة، ومن ثم انتقلوا إلى نشره نشرًا يعتمد على أدق منهج للتوثيق والتحقيق ... وصحونا من نومنا، فإذا ألوف الذخائر العربية بين أيدينا، محرّرة، مؤثقة، نلوذ بها في دراساتنا العالية، و نعد الرجوع إليها في أبحاثنا مدعاة للفخر والمباهاة، وبلغوا في دراساتهم للشرق وللعربية وللإسلام حدّاً مذهلاً من العمق والتخصص"⁽⁸⁵⁾. وعن شخص المستشرق "كراتشكو فسكي" قالت: "... من الإنصاف أن أقرر - بتقدير صادق - أن هذا الكتاب يحمل أثر جهدٍ شاقٍ صابرٍ، وثمرة عملٍ مخلصٍ دائمٍ، استغرق نحو ثلث قرن من الزمن، أمضاه الأستاذ «كراتشكو فسكي» في جمع مادته الخصبه عن تاريخ الأدب الجغرافي للعرب"⁽⁸⁶⁾.

وحينما أرادت تدوين ملاحظات هامة على هذا العمل الموسوعي قالت: "... وفي كتاب «كراتشكو فسكي» أقوال خاطئة عن الإسلام والقرآن الكريم، نخالفه فيها ونؤاخذها عليها بمنطق العلم، وأعترف مع ذلك بأنه من أحرص المستشرقين على ضبط قلمه من جماح الهوى وضلل التعصب، ولعل الذي في كتابه من مآخذ لا يخرج عن كونه أخطاء لا ينجو من مثلها دارس بتخصص في غير لغته، وينظر في نصوص دينية متأثرًا بموقفه من الأديان ورأيه في إلهية كتابها"⁽⁸⁷⁾.

(84): كتاب: "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" للأستاذ أغناطيوس كراتشكوفسكي (1883-1951 م) يقع في حوالي 900 صفحة، وقام بترجمته إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم، ويبدو من مقدمة المترجم أنه قام بهذا العمل الكبير سنة 1961م، أما الناشر للكتاب فهو: غ، تسرتيلي، G.Tsereteli ويبدو من مقدمة المؤلف أنه أنهى عمله هذا في موسكو في: 1943/10/10م، وقد صدر عن الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية في مجلدين.

(85): من محاضرة ألقته الدكتورة في الموسم الثقافي في الكويت عام: 1957م، وقد طبعت ضمن كتاب "فعاليات الموسم الثقافي الكويتي".

(86): نفس المرجع.

(87): من محاضرة ألقته الدكتورة في الموسم الثقافي في الكويت عام: 1957م.

بهذا الوجازة والراحة في العقل والإنصاف يمكننا القول بأن الدكتورة عائشة قد رسمت منهاجاً خاصاً وفريداً في التعامل مع المستشرقين وإسهاماتهم في التراث العربي الإسلامي الشرقي.

وإن المرء ليقف وقفة احترام لها لعظيم إنصافها وجميل أخلاقها مع المخالفين من المستشرقين المشتغلين بالتراث العربي الإسلامي، وأقول "المخالفين" أريد بهم شقّي الخلاف العقائدي، والمنهجي المدرسي في تحقيق التراث، على اعتبار أنهم مدرسة استشراقية في صناعة التحقيق، والعرب مدرسة مخالفة وممايزة لها.

ولا أبعد النجعة إن أسقطت كلام الدكتورة عائشة على المستشرق الدكتور ميكلوش موراني، وبلسانها أقول: أعجب من رجل ألماني الجنسية مجري الأصول، يأتي لتراثنا وأمّهات كتبنا، فيعدّلها ويُخرّجها لنا من حاضنات الزوايا والمكتبات القديمة العامة والخاصة، إلى رفوف مكتباتنا الحديثة، فننتعم بها، ونتلذذ بقراءتها والنهل منها، ثم هو بعد ذلك كله يُقرب لنا بعيدَ زمانِ السلف ومكانهم وأسلوب كتابتهم وتآليفهم، بل وحتى حياتهم.

وعلى الرغم من بعض النقائص التي تعترى صناعة وعمل الإنسان، مهما كان جنسه أو دينه أو منهجه التعلّمي ومدرسته الفكرية، أقول للدكتور موراني: شكراً... فقد أخذت بأيدينا إلى تراث أجدادنا.

ولن أتطرق لموضوع الاستشراق والمستشرقين والحكم عليهم إيجاباً أو سلباً، فقد خاض فيه من خاض وألّف فيه ما ألّف، وهو موضوع يتجدد بين الفينة والفينة، وحلبة الصراع فيه دوماً حاضرة.

ولكن فقط لنرد على الذين أصّلوا لمقولة: "ألا من للأفزام- الاستشراق وأهله- بمنّ يقنعهم أنهم ليسوا بعد إلا الأفزام"، بأن نقول لهم: بل ليسوا سواء، وعندكم مات الإنصاف.

أولاً: ترجمة ميكلوش موراني، وبيان جهوده في خدمة التراث العربي الإسلامي، والفقه المالكي خصوصاً.

ميكلوش بالجرية: Miklós اسم مجري، وأصله يرجع إلى الاسم اليوناني "نيكولاس"، ولغموض في سيرته وترجمته، لم أستطع الوقوف على سنة ميلاده، واليقين أنه الآن جاوز الستين من العمر⁽⁸⁸⁾، وأصوله مجرية ثم نال الجنسية الألمانية، وهو الآن مقيم بألمانيا، ويُدرّس بجامعة "بون" الألمانية، قسم الدراسات الإسلامية واللغة العربية. يقول الدكتور موراني متحدثاً عن نفسه: ((قضيتُ ثلاثة وأربعين عاماً في هذه الدراسات، منها عشرة أعوام طالباً في الجامعات، ولم أنقطع عن الدراسة إلا عامين فقط، وقد كانت بداية الدراسة صعبة؛ إذ كانت هذه الحضارة غريبة عليّ، كما كانت المعايير الدينية غريبة أيضاً، إلى جانب صعوبة دراسة اللغة.

وقد تغيرت الأحوال عند لقائي الأول والمباشر بهذه الحضارة، وبهذا المجتمع الآخر أثناء إقامتي الأولى في مصر. لم أبحث عن العلم والدرس في كلية الآداب في جامعة القاهرة، بل أردت أن أقرب من هذا المجتمع اقتراباً مباشراً؛ لكي أفهم طريقة تفكير الناس ولكي أفكر كما يفكرون. لم أحضر المحاضرات في الكلية إلا من حينٍ إلى آخر، وقضيتُ أغلب أوقاتي في جوار الأزهر مع تجار خان الخليلي، وقضيت معهم الأيام من الصباح حتى ما بعد

(88): حيث قال في ترجمته المقتضبة في حوارهِ الذي أجراه مع إدارة موقع ملتقى أهل التفسير العنكبوتي: وأصبح من الضروري أن أدخل المكتبة الأزهرية لكي أطلب مخطوطاً في قاعة محمد عبده لقراءته أو للنظر فيه لأول مرة في حياتي عام 1968م.

العصر، وكانت لهذه اللقاءات المتواصلة ثمراتها من ناحيتين:

أولاً: فهمتُ لهجة الناس، وأصبحتُ ملازماً لهم في الحديث اليومي.

ثانياً: تعرفت على وفاء هؤلاء الذين صحبتهم في القاهرة، حيث جئت زائراً لهم بعد اثني عشر عاماً، وعندما دخلت السكة في الحارة التي كنت أتجول فيها يومياً قام التاجر الفلاحي من كرسية، وقام الآخر، والثالث ورجبوا بي، وسلّموا عليّ باسمي وهو بلا شك غريب عليهم لأنه اسم (خواجة)، وسلّموا عليّ كأنني فارقتهم بالأمس. فهنا أخطبكم جميعاً: مَنْ يبحث عن هذا الكرم وهذا الوفاء في المجتمع الغربي فإنه يبحث عنه بلا جدوى! هكذا كان اللقاء الجديد، ليس مع التجار فحسب بل ببعض طلبة الأزهر أيضاً الذين التقيت بهم في مناسبات عديدة، حتى أصبحتُ ضيفاً دائماً أيام الجمعة لحضور الخطبة في رحاب الأزهر الشريف حيث سمّح لي الخطيب حينذاك أن أستمع إلى الخطبة، وأنا أنتظره في مكتبه أثناء الصلاة.

وهناك تعرفتُ على فئاتٍ أخرى من الناس لم أستطع أن أعرفهم في كلية الآداب في الجامعة. وهنا لم يجر الحديث حول التأريخ كما جرى في الكلية، بل حول الحديث النبوي وفهمه أولاً، وبعد ذلك عن التفسير وعلومه. وأصبح من الضروري أن أدخل المكتبة الأزهرية لكي أطلب مخطوطاً في قاعة محمد عبده لقراءته أو للنظر فيه لأول مرة في حياتي عام 1968م، كانت هذه الخطوات الأولى اقترباً من هذه الحضارة، وهذا المجتمع المسلم، وهي تجارب لا تُدرّس في الكليات.

أمّا الشّعْر فلم يكن لي اهتمامٌ به، غير أنّ أستاذي في جامعة بون كان متخصصاً في الشعر الأندلسي، وقد عدّ بنا به، وبتراجم الشعراء، وقرأنا عليه الشعر بغير رغبة فيه. وهكذا الأمر في الشعر بصورة عامة لا أجد ميلاً وتسليّة في قراءته حتى الشعر الكلاسيكي الأوروبي ((⁸⁹).

ثم إن الرجل جعل جُلَّ اهتماماته تصب في دراسة مصادر الفقه المالكي خصوصاً، ولازم المخطوطات القيروانية ملازمة شديدة بحثاً وتنقيحاً ودراسة، وأصدر كتابه "دراسات في مصادر الفقه المالكي"، يقول الدكتور نجم الدين الهنتاتي المدرس بجامعة الزيتونة بتونس: "ويعتبر ميكلوش موراني من الرواد في تناول "النوادر" بالدرس بصفة جدية، فقد خصّص جُلَّ كتابه "دراسات في مصادر الفقه المالكي" للتعريف بالمصادر التي اعتمد عليها ابن أبي زيد في "نواذره"، وقد عرّف ابن أبي زيد بتلك المصادر في مقدمة كتابه، كما عرّف بطريقة عمله التي تتمثل في اختصار محتوى تلك المصادر" (⁹⁰).

(89): من حوار: حول الواقع المعاصر للدراسات الاستشراقية مع المستشرق الألماني د. ميكلوش موراني، على الموقع الإلكتروني:

ملتقى أهل التفسير. <http://www.tafsir.net/vb/forum17/thread3015-3.html>

(90): من مقال للدكتور نجم الدين الهنتاتي في موقع الإلكتروني التاريخ العربي:

<http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad29partie7.htm>

وللصلة الوثيقة بينه وبين مخطوطات المذهب المالكي، التي تحسبها وعن كتب في المكتبة الوطنية بالقيروان، والمعهد الوطني للتراث، مركز دراسة الحضارة والفنون الإسلامية بقرادة، وعلاقته مع المسؤولين هناك، أمثال الدكتور : مصطفى مراح وغيرهم، نشر وحقق مجموعة من كتب المذهب المالكي. وله تراث قيم وبصمة كبيرة في ذلك، حيث نشر: أجزاء من كتاب "الجامع" لابن وهب المصري/ وأجزاء من الواضحة لعبد الملك بن حبيب/ تحقيق كتاب: القضاء في البيوع من الموطأ برواية ابن القاسم العتقي/ كتاب: دراسات في مصادر الفقه المالكي... وغيرها من المقالات المبثوثة في الجلات والدوريات العامة والخاصة على المستوى العالمي.

وأختم هذا المبحث برسالة من الدكتور أرسلها لي مشكورا، جاء فيها ما نصه: السيد عبد الغني عمر المحترم... أشكر لك على هذا الاهتمام، بدءاً أود أن أذكر أن النقد على كتاب المحاربة من جانب الجبالي لم يكن إلا هجوماً ومفردات وأساليب خارج المتطلبات الأدبية، وذلك دفعني إلى عدم الرد عليه، والسبب الثاني لهذا، كان عدم علمه بالراوي عن ابن وهب وهو يونس بن عبد الأعلى وهو مشهور. أما ترتيب الكتاب الأصلي وهو أيضاً يتفق وأساليب المالكيين مثل ابن أبي زيد القيرواني في النوادر والزيادات وغير ذلك من الأمور البديهية لا ينبغي الإطالة فيها.

فيما يتعلق بالسيرة الذاتية فأرجو أن تكتفي بالأهم : حصول على درجة الدكتوراه عام ١٩٧٤ ، بحث وتدریس في جامعة بون من ١٩٧٥ إلى ٢٠٠٦ في قسم الدراسات الإسلامية واللغة العربية . مشاريع علمية حول تأريخ المذهب المالكي من ١٩٧٨ إلى ٢٠٠٢ . المنشورات الأخيرة : تحقيق كتاب البيوع من الموطأ برواية ابن القاسم العتقي (٢٠١٢) وأجزاء من الواضحة لعبد الملك بن حبيب (٢٠١١) ولك الخير والعافية | موراني.

ثانياً: تحقيق موراني لجزء "تفسير القرآن" من "الجامع" لابن وهب، بيان المنهج المتبع والجهود المبذولة. كتاب "الجامع الكبير" للإمام ابن وهب المصري المالكي (197هـ)، من أبرز كنوز السنة الذي سجل عناية الأمة الإسلامية بحديث نبيها صلى الله عليه وسلم، جمعاً وترتيباً وشرحاً وتعليقاً، ويعد من أقدم المخطوطات الحديثة في جميع مكاتب ومتاحف العالم، إن لم يكن أقدمها جميعاً، وقد جاء المخطوط مقسماً على مجموعة كبيرة من الأبواب، استفتحها المؤلف بكتاب تفسير القرآن، وحوى كتاب الأنساب، وكتاب الصمت، وكتاب الخاتم، والطيرة والعدوى والهام والصفير والغول، وغيرها من الكتب التي لم يتسن لنا حصرها لفقد المخطوط كاملاً.⁽⁹¹⁾ وقد حُققَت مجموعة كبيرة من تلك الأبواب في مذكرة للدكتوراه للطالب: مصطفى حسن حسين محمد، والتي جاءت بعنوان "الجامع في الحديث"، وقد طبعت الرسالة بدار ابن الجوزي سنة: 1996م.

(91): وما تم إحصاؤه كان استقراء من تحقيق "الجامع في الحديث" للدكتور مصطفى حسن حسين محمد، في مذكرته للدكتوراه بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وقد طبعت بدار ابن الجوزي سنة 1996م.

ثم تلا هذا الجهد، جهد كبير للمستشرق ميكلوش موراني، بتحقيقه للجزء الأول من كتاب "الجامع" الذي هو جزء "تفسير القرآن"، وقد صدرت الطبعة الأولى منه بدار الغرب الاسلامي ببيروت، سنة: 2003م. اعتمد في تخريجه لهذه النشرة من الكتاب مخطوطا فريدا ووحيداً، وجده في المكتبة العتيقة بالقيروان، تحمل رقمي: 1781/1779. مكتوبة على رق، بخط قيرواني نسخي، مسطرتها: 28.

نسخها: عبد الله بن مسرور بن أبي هاشم التجيبي (ت 346هـ) بالقيروان، غير مؤرخة بتاريخ نسخ محدد، غير أن المحقق رجح كونها كتبت في أواخر القرن الثالث الهجري، معتمداً في ذلك على تدوين سماع الناسخ عبد الله بن مسرور من شيخه عيسى بن مسكين تلميذ سحنون بن سعيد قاضي القيروان في إمارة إبراهيم بن أحمد الأغلي، سنة: 290هـ.

ولنا وقفة في هذا الاستنباط، حيث أن تصريح الناسخ بالسماع سنة: 290هـ، لا يعني كونه كتبت النسخة في هذه السنة، أو في هذه الفترة، خاصة أن تاريخ وفاته كان سنة: 346هـ، ويبقى الرأي الصواب تحديد زمانية الكتابة بالقول: من أواخر القرن الثالث حتى منتصف القرن الرابع الهجري، والله أعلم.

قدّم الدكتور موراني لكتابه هذا بدراسة وافية الثلاثين صفحة، استفتحها بجهد المستشرق الفرنسي دافيد وويل في نشره لنسخة نادرة من كتاب الجامع لابن وهب، ضمن سلسلة منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، وهي نسخة محفوظة بدار الكتب المصرية على ميكروفلم برقم: 36818/49325.

كما أشار إلى رسالة الدكتوراه للطالب: مصطفى حسن حسين، والتي كانت تحقيقاً لجزء الحديث ولبعض أبوابه، وقد نشرت سنة: 1996م، كما أشار بوجه النقد لعمل الدكتور هشام اسماعيل الصيني، في تخريجه لكتاب "الموطأ" للإمام عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي" والذي نشر سنة 1999م، عن دار ابن الجوزي أيضاً.

وأشار الدكتور إلى وجود أجزاء أخرى غير التي حققها بالمكتبة العتيقة بالقيروان، كجزء علوم القرآن، وجزء كتاب العلم، وجزء كتاب الشعر والغناء، وأشار إلى أنه سيقوم بإخراجها أيضاً، وعقب بالقول: بإذن الله⁽⁹²⁾. وتحت عنوان: مؤلف الكتاب، قام بالترجمة لابن وهب صاحب "الجامع"، غير أنها ترجمة مقتضبة، اقتصر فيها على أصول فقط.

ثم وصف المخطوطة المعتمدة، وأظهر مادتها، وخطها ومسطرتها وناسخها وتاريخ نسخها، ثم رواية الكتاب التي جاءت عن طريق: عيسى بن مسكين عن سحنون بن سعيد عن ابن وهب المصري. وقام بالترجمة لهم. ويُنَّ اعتماد الناسخ في مقابلة النسخة على كتاب سحنون بن سعيد كأصل له، ثم على نسخة شيخه عيسى بن مسكين برواية سحنون، واستدرك بالقول أنه لم يعتمد على كتاب سحنون كله بل قابله بنصفها فقط، وبين موضع ذلك.

(92): الجامع تفسير القرآن، ابن وهب المصري، تحقيق: ميكلوش موراني، دار الغرب، بيروت، ط: 01، ت: 2003م، ص: 12.

وختم دراسته هذه بالتقرير أن " هذا الجزء من تفسير القرآن من الجامع لابن وهب يعتبر اليوم - على حد علمي - من أقدم المخطوطات في علم تفسير القرآن بالمأثور، إن لم يكن أقدمها على الإطلاق"⁽⁹³⁾. وقد أشار الدكتور إلى أنه بجانب التحقيق للنص " أشرتُ إلى بعض المواضع الأخرى في كتب التفسير وغيرها من كتب التراث، خاصة إذا وقعت فيها روايات لابن وهب عن شيوخه"⁽⁹⁴⁾. وهذا ليس بقصد اعتمادها في تخريج النص، كما طالبه به الأستاذ تامر الجبالي في نقده على عمل الدكتور في كتاب "المحاربة" الذي سيأتي، إنما هو لبيان التوثيق والثبوت

وزيادة الاطمئنان في ذلك، لا لتخريج النصوص وإثبات فروق النسخ.

ثم أبان عن منهج ابن وهب في تفسيره هذا، وأنه لم يعتد بترتيب السور والآيات بل كان ترتيبه وفق شيوخه وسماعه، فكان بذلك منتقلا بين الأسانيد وروايات شيوخه، وهذا ما ألجأ المحقق إلى وضع فهرس خاص بالآيات المفسرة مرتبة بحسب الترتيب القرآني المصحفي، وهذا صنيع إجادة ووفاية يُشكر عليه. وعرض الدكتور مجموعة من اللوحات للمخطوطة المراد تحقيقها، أتت في ستة لوحات، ختم بها دراسته للكتاب. وخالف الدكتور موراني المنهج الاستشراقي في أسلوب التهميش وذكر تراجم الأعلام، بين مطالب بالإسهاب فيها، وبين مقتصر على الاسم واللقب وسنة الوفاة وبعض المؤلفات فقط، فجعل في نشرته هاته الترجمة للأعلام عبارة عن ذكر للاسم فقط، ثم مصادر ترجمته، مركزا على الذهبي في "سير أعلام النبلاء"، و"تهذيب الكمال" للمزي، فقد كان مكثرا من الإحالة عليهما.

وقام المحقق بتقييم الآثار والأحاديث الواردة في الكتاب، مبتدئا من أول السطر، وهذا ما ساعده في وضع فهرس خاص بالأحاديث النبوية، والآثار السلفية.

كما خالف بعض رواد المدرسة الاستشراقية حينما جنح برأيه إلى عدم وضع اسم السور وأرقام الآيات داخل النص المحقق، وجعل لها رقما في المتن كإحالة، وبيانا في الهامش، خلافا لمنهج برجستراسر مثلا الذي يقول: "ويصح أن نضع عدد السورة والآية في النص نفسه بين قوسين إما قبل الآيات أو بعدها، وذلك أبسط على المطالع من إلزامه بالتفتيش على العدد تحت المتن"⁽⁹⁵⁾.

ووضع المحقق في نهاية عمله هذا، فهرس ثلاث، الأول منها للآيات القرآنية، أقامه مرتبا بحسب الترتيب المصحفي، ويذكر رقم الآية ثم رقم الفقرة (الحديث أو الأثر)، ثم فهرس خاص بالأحاديث النبوية، مرتبا إياه هجائيا بحسب طرف الحديث، ثم ثلث بفهرس الأعلام، وجاء بها مرتبة هجائيا مبتدئا بالأبناء ثم الآباء، "ابن"، "أبو"، وجعله على شكل كشاف مساعد على الوصول إلى مواضعها في النص.

(93): نفس المرجع، ص: 22.

(94): نفس المرجع، ص: 25.

(95): أصول نقد النصوص ونشر الكتب، برجستراسر، تقديم: محمد البكري، دار المريخ، الرياض، دط، ت: 1982م، ص: 112.

ويعتبر هذا العمل من الدكتور موراني إسهاما جديدا لعلم التفسير عامة، ومنهج التفسير لدى السادة المالكية خصوصا، بل يمكن اعتباره أول تفاسير السادة المالكية على الإطلاق.

ثالثا: نقد الأستاذ تامر الجبالي⁽⁹⁶⁾ لعمل الدكتور موراني في كتاب "المحاربة" وقفات وتصحيحات: في رسالته المعنونة بـ "كتاب المحاربة من موطأ ابن وهب" بتحقيق ميكلوش موراني، قام الأستاذ تامر الجبالي - وهو زميل الدراسة بمعهد المخطوطات بالقاهرة- بإصدارها وإخراجها لمنتديات عدة، ثم صدرت في مجلة معهد المخطوطات بالقاهرة، ونشرت في المجلد 52، الجزآن 1، 2 / بتاريخ: ربيع الآخر - شوال 1429هـ/ مايو - نوفمبر 2008م، وقام الأستاذ عصام الشنطي - رحمه الله تعالى - بتزكيته - بحسب كلام الأستاذ تامر الجبالي في أحد المنتديات العنكبوتية-.

وإنصافا للدكتور موراني وللعلم من قبله، رأيت أن الأستاذ قد تحامل على الدكتور تحاملا شديدا، وصل به الأمر إلى الاستهزاء بالدكتور، ومنه غمط حقه ودوره في إحياء تراثنا العربي الإسلامي، وإن اختلفنا معه في بعض المسائل التي لا يُردُّ فيها إلا بمنطق العلم والأخلاق لا غير.

ثم إني عجبت من الأستاذ حينما عدَّ من أخطاء الدكتور وقام بتضخيمها، إبدال حرف العين في لفظة "عبد الله" بالهاء فوردت "هبه الله"، وغيرها من الأخطاء التي تُبرئ ساحة الدكتور موراني منها، للغة العربية المتقنة التي يكتب بها في كتاباته أو مشاركاته في المنتديات العلمية، والتي لا يسقط فيها صغار المستشرقين المبتدئين فضلا عن كبارهم، والناظر يلحظ ذلك.

وقد قسم الأستاذ تامر رده على الدكتور موراني وفق محاور خمس، لنا معه فيها وقفات وتصحيحات تأتي وفق المحاور التالية:

المحور الأول: عنوان الكتاب:

قال الأستاذ تامر: كما مرَّ جاء عنوان الكتاب: « كتاب المحاربة من الموطأ »، وقد تابع المحقق غلاف النسخة في هذه التسمية. ومعلوم أن المسلمين لم يعرفوا صفحة العنوان في أول عهدهم بصناعة الكتاب، ومع هذا فقد كانوا يتركون الصفحة الأولى بيضاء، « وكان الناسخون الذين يقومون بنسخ الكتب عن أصولها يضيفون عنوان الكتاب واسم مؤلفه على الصفحة الأولى في بعض الأحيان، وكان بعضهم ينسخ الكتب كما هي دون أن يضيف إليها شيئا، وبعد فترة من الزمن يأتي من يضيف العناوين بخط مخالف لخط النسخة ومتأخر عنه كما الحال في كثير من المخطوطات القديمة ». «

(96): الأستاذ تامر الجبالي، أبو أسلم، صديق وحبيب، تعلمنا سويا في معهد المخطوطات بالقاهرة، وكان له اشتغال بالتراث الحديثي، وهجمات حامية على الاستشراق وأهله، تغلب فيها الحمية على الإنصاف، وهو الآن باحث بالمعهد.

ومتابعة العنوان المثبت على غلاف المخطوط دون تثبت - من الأخطاء الشائعة؛ لذلك ينبغي للمحقق أن يتثبت من صحة العنوان بكل وسيلة ممكنة. وإذا طبقنا ذلك على كتابنا، وأمعنا النظر، وجدنا المخطوط يحتوي على عدة أبواب، وهي:

« ما جاء في المحارب والقاطع للسبيل - ما جاء في قتل الحرورية - باب في قتل القدرية - باب في المرتد عن الإسلام - باب في المرأة ترتد عن الإسلام - باب الزنادقة - باب في سب النبي صلى الله عليه وسلم والؤلة - باب في قتل السُّحَّار - باب في ضرب العبيد وجراحاتهم ».

وجُلَّ هذه الأبواب لا تدخل في كتاب المحاربة، عند المالكية وغيرهم، بل بعض المالكية لم يجعلوا أحكام المحاربين في كتاب مستقل، إنما وضعوها في باب من كتاب الحدود، والأبواب الواردة في النسخة أقرب إلى أن تكون ضمن كتاب الحدود؛ فكان الأولى أن يُسمَّى الكتاب: « قطعة من الموطأ، لعبد الله بن وهب »، أو « بعض أبواب الموطأ، لعبد الله بن وهب ».

أقول: لنا وقفات ثلاث مع نص كلامه هذا:

أولاً: نقضُ صحة العنوان بفرضية أن يأتي آخر بعد فترة من الزمن ويضيف العناوين بخط مخالف لخط النسخة، ضرب من الوهم الذي سيحرك للتشكيك في معظم المخطوطات العربية الإسلامية وعناوينها، كما أن فرضية أن لا يأت هذا الآتي موجود، وأن النسخة الأولى - الأم - كانت مدونة بهذا العنوان، فلجأ المحقق لإثبات ما وجده مثبتاً على النسخة سواء كانت من صنع أحد النساخ أو من صنع صاحب الكتاب، وله أن يعقد مبحثاً صغيراً يبين ذلك بالأدلة والبراهين، إثباتاً أو نفياً.

ثانياً: قول الأستاذ تامر: فكان الأولى أن يُسمَّى الكتاب: « قطعة من الموطأ، لعبد الله بن وهب »، أو « بعض أبواب الموطأ، لعبد الله بن وهب »، لأن جل أبواب الكتاب لا تدخل في كتاب المحاربة

أقول: ليس له أن يضع من عنديته عنواناً خاصاً للكتاب، وإن كنت لا تجيزه للدكتور موراني، فلم تجوز ذلك لنفسك؟!!!

ثانياً: قد أثبت المحقق ما وجده مثبتاً على غلاف المخطوط، وهذا أرجح وأوثق من أن يضعه من تلقاء نفسه وباختياره، لأنه تدخل سافر في المخطوط عند أهل الصنعة التحقيقية.

كما أن الدكتور موراني قد غلب أحكام المحاربة في الكتاب على غيرها من الأحكام، لذا أطلق تلك العنونة التي وجدها في اللوحة الخارجية من المخطوط، ولأن وصف وحكم القتل غالب في أحكام المحاربة، فرأى الدكتور أو واضع العنونة قديماً من أن شبهه كبير مطابق للقتل في الحرورية والقدرية و المرتد وغيرهم.

وقد أُلِّف كثيراً في موضوع تحقيق المحاربة وضوابطها ومدارها، إن استصحب أنها إخلال بالنظام في المجتمع وجعل الناس في مخافة وقلق ووحشة، وإزالة الأمن العام، وهذه الفرق وأحكامها الخاصة بها، تدخل ولو من بعيد في أمر المحاربة لشبهها بالحكم الذي هو القتل.

فإن احتج الدكتور موراني بالذي ذكرناه، أو الناسخ الذي وضع تلك العنونة، فله ذلك ومن حقه، إذ أجزت لنفسك أن تضع أنت العنوان، فكما يجوز لك أفلا يجوز لغيرك؟!!!

ثالثاً: لأن الأستاذ تامر الجبالي متخصص في التحقيق وخريج معهد المخطوطات، لا أخاله يغيب عنه أن الهوامش التي كتبها في رسالته التي رد بها على الدكتور موراني، لا تمت بأي صلة بصناعة وفن التهميش والهوامش، ومثاله كثير في رده هذا، نذكر منها:

- 1: حينما ذكر أن الدكتور موراني طلب من القراء المبادرة إلى تصحيح أخطاء نشرته، وضع لها هامش أسفل الصفحة، وجاء فيه: (ص14/س11). (هكذا) ، ولنا أن نتساءل بعد ذلك، أين عنوان النشرة، ومؤلفها، ثم دار النشر، ومكان النشر، والسنة والطبعة، وهي أمور ملزمة إن كان الرد أكاديمي علمي.
- 2: في نقله لكلام الدكتور عبد الستار الحلوجي عن إضافة العناوين من طرف بعض النساخ، جعل الأستاذ تامر هامش النقل كالتالي: الدكتور عبد الستار الحلوجي، « المخطوط العربي » (ص157). (هكذا)، ويقال فيه ما قيل في رقم 01.

وسنأتي على صنيعة هذا في كل محور من المحاور.

المحور الثاني: النسخة المعتمدة:

يقول الأستاذ تامر: ... ولا يوجد مسوّغ علمي لطبع جزء من الكتاب مع وجود أجزاء غيره تحت يد المحقق، وقد نصّ الدكتور موراني على وجود هذا الجزء الآخر فقال (ص 171 س 10، 11 في ترجمة اللّيث): « له كتاب مسائل في الفقه، ذكره ابن وهب في كتاب القضاء في البيوع من موطّعه (مخطوط القيروان) ». أقول: ليس من لازم وجود أجزاء أخرى للكتاب المراد تحقيقه أن يُحقّق جميعاً أو يترك جميعاً، فقد يختار المحقق جزءاً محدداً بالواح معينة، أو بأبواب وكتب محددة، ويعمل عليها، فمن أين للأستاذ تامر هذا اللازم العلمي؟، وقد علم في بعض الدراسات الأكاديمية أنهم يشترطون عدداً معيناً من اللوحات، أو عدداً خاصاً من الأبواب إن كان حجمه كبيراً، أو حلّ مغالقه عسيراً.

ثم تحت هذا المحور يقول الأستاذ: ومعلوم أن نُشر أي كتاب على نسخة واحدة لا يجوز عند المشتبّين من أهل التحقيق والضبط إلا في حالات معينة، وبشروط مخصوصة في تحقيق هذا النوع. أقول: الجزم بالتحريم الحقيقي، وأن لا يجوز نشر أي كتاب على نسخة واحدة، أمراً فيه ما فيه من الجرأة و عدم الثبوت، لأن الأصل في هذا النوع من المخطوطات الإخراج ولو بنسخة واحدة، خاصة إن كانت ذات فائدة وقيمة علمية، ثم تُعدّل وتقابل إن أخرج لنا الدهر نسخة ثانية، بهذا أفتي - على حد قوله لا يجوز - لنا الدكتور فؤاد سيد، والدكتور عبد الستار الحلوجي وغيرهم، والسؤال: من هم هؤلاء المشتبّين من أهل التحقيق والضبط الذين قالوا بقولتك أستاذي؟.

ويمكننا القول بأن الأسباب التي دفعت الدكتور محمد سليم سالم - مثلاً - إلى إعادة تحقيق كتاب "تلخيص الشعر" لابن رشد الذي سبق أن نشره فاوستو لازينيو سنة: 1873م بمدينة بيزا الإيطالية اعتماده في طبعته

الأولى على مخطوط واحد، وهو مخطوط ذائع ومعروف، ولكن الكشف عن مخطوط آخر محفوظ بمكتبة الجامعة بمدينة ليدن، يبرز ظهور تحقيق جديد، ولو تتبعنا الأستاذ تامر وشروطه لما رأينا لكتاب "تلخيص الشعر" أي وجود.

ونفس القول حول كتاب "السنة" للخلال، الذي ليس له إلا نسخة واحدة؛ وهي التي اعتمدها الدكتور عطيه بن عتيق الزهراني محقق الكتاب، وقد أشار لهذا الأمر في المقدمة ص: 59.

وكذا كتاب "المنازل والديار" للفراس أسامة بن منقذ، والذي ليس له إلا نسخة واحدة، والذي أشار إلى وجود تلك النسخة المستعرب الروسي كراتشكوفسكي - عضو الجمع العلمي العربي بدمشق -

و الكتاب حققه: مصطفى حجازي، وصدرت طبعته الأولى في القاهرة سنة: 1387هـ - 1968م.

وفي الشروط المخصصة في تحقيق النسخ التي لا أخت لها يقول الأستاذ تامر:

"مقابلة نصوص الكتاب مع نُقول المتأخرين عنه، وهذه المسألة مهمة جدا. لأن هذه النُقول تقوم مقام النسخ المساعدة في ضبط النص، وفي هذه الحالة يجب أن يُراعى المحقق أي اختلاف بين النُقول والنص الأصلي، فسيجد أحيانا زيادة، أو نقصا عند بعض المتأخرين، وربما وجد المحقق النقل موافقا للأصل، وبالتتبع الدقيق للقراءات المختلفة يتبين للمحقق أن النسخ التي اعتمد عليها فلان وفلان من المتأخرين فيها زيادة على الأصل الذي معه، أو نقص منه".

وسؤالي للأستاذ: وهل يثبت فروق النسخة الأم ونصوص تلك النُقول في عمله أم لا؟ إذ المعلوم أن فروق النسخ لا تكون إلا بنسخ مماثلة للتي نحن بصدد تحقيقها أو ما أشرت إليه أنت بالقول: أخت.

أجاب الأستاذ تامر بالقول: "وفي أثناء ذلك العمل يجب على المحقق أن يثبت كل الفروق بين الأصل ونُقول المتأخرين، حتى يصل إلى:

1- تقييم النسخة (الأصل)، ومعرفة مدى ضبطها.

2- إقامة النص، إذا كان الأصل ليس في الدرجة العليا من الضبط.

وهذا القول من إثبات الفروق بين الأصل ونقول المتأخرين في هامش العمل، لم يقل به أحد من أهل الصنعة التحقيقية - على حد علمي - لأنه يتطلب من المحقق عملية استقراء ومسح لكل من أخذ من هذا الأصل الذي نحن بصدد إخراجها، وهو متعذر.

وأوافقك الرأي في أن هذا العمل مساعد في ضبط النص وقراءته، ولكن لا يعدو ذلك.

المحور الثالث: تاريخ النسخة:

أولا: يقول الأستاذ تامر الجبالي حول ترجيح الدكتور موراني لتاريخ النسخة ما نصه:

"رجح المحقق أن النسخة كُتبت في بداية القرن الثالث الهجري. وهذا فيه نظر؛ لأن البراهين التي ذكرها ملخصها أن هناك سماعات قديمة على النسخة لرواة الجزء. ومعلوم أن الناسخين، ولا سيما طلبة العلم، كانوا ينسخون

السَّماعات والإجازات والتَّعليقات المثبتة على الأصل، وهذا الأمر له أمثلة لا حصر لها، ففي كثير من الأحيان ينص الناسخ على أنه وجد سماعات على الأصل ثم يقول: « وهذه صورتها »، ثم يقوم بنقلها". وأقول: يبقى ترجيح الدكتور موراني قائم، على أساس أنه لم يجد ما نصصت عليه من أنه في كثير من الأحيان ينص الناسخ على أنه وجد سماعات على الأصل ثم يقول: « وهذه صورتها »، ثم يقوم بنقلها. فلما لم يجد هذا القيد بقي الأصل، وهو أن تلك السماعات والإجازات وغيرها تبقى رهينة وحبس الزمن الذي وجدت فيه النسخة أو كتبت فيه، ولو عمم هذا القيد التشككي لما سلمت نسخة ولما استطعنا بيان زمن أي نسخة من النسخ.

ثانياً: يقول الأستاذ: أمّا قوله في وصف الخط: « كوفي قديم من طراز قيرواني » اهـ، فغير صحيح، والصحيح أنه (خط مغربي رديء، وفي مواضع رديء جداً)، حتى إن الناسخ لا يطرد في رسم الحرف الواحد على هيئة واحدة (وذلك في بعض الحروف).

ويكفي في هذا المقام أن يقال للأستاذ: ليس بطريقة رسم بعض الحروف في النسخة يحكم بنوع الخط، وللفادة فإن الخط المغربي يختلف في بعض رسوماته لبعض الحروف بين القيروانية والقروية والزيتونية وهكذا، وإن كان الأصل هو التشابه.

"كما أن الخط الكوفي قد تطور تطوراً مذهلاً، حتى زادت أنواعه على سبعين نوعاً، كلها ترسم بالقلم العادي على المسطرة، ولم يعد وفقاً على الخطاطين، فقد برع فيه فنانون ونقاشون ورسامون، وغير مهتمين بالخط، بل برع فيه كثير من هواة الرسم والدق، وابتكروا خطوطاً كثيرة له منها: الكوفي البسيط، والكوفي المسطر - ويسمى: المربع، أو الهندسي التربيعة - والخط الكوفي المسطر المتأثر بالرسم، والخط الكوفي المسطر المتأثر بالفلسفة، والخط الكوفي المتشابك، والكوفي المتلاصق، والكوفي المورق. الذي قال عنه الخطاط كامل البابا: (لقد نفخ الخط العربي في الحرف الحياة، وحوّله من جماد إلى نبات، تنشق عنه أغصان وأوراق وأزهار. والخط الكوفي المزخرف، والمزّين، والمظفور، والكوفي الأندلسي والخط الكوفي الفاطمي، والكوفي الأيوبي، والكوفي المملوكي" (97).

يقول الدكتور أحمد شوقي بنين: "الكتابة القيروانية: الكتابة المغربية الأصلية، تولدت في القيروان عاصمة المغرب في القرن الثاني الهجري، من الخط الكوفي مباشرة ولم تقتبس من النسخ الحجازي" (98). ولي بعد ذلك أن أسأل الأستاذ تامر: هل لك أن تميز بين هذه الأنواع للخط الكوفي كلها، فإن كان نعم، فانظر فعساه: كوفي قيرواني.

كما أن الأجدد أن تضع صورة للوحة من لوحات النسخة ليكون الأمر بحثاً بين الباحثين.

(97): كيف نعلم الخط العربي، معروف رزيق، دار الفكر، بيروت، ط: 06، ت: 2010م.

(98): معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي)، أحمد شوقي بنين/ مصطفى طوي، الوراقة الوطنية، مراكش، ط: 03، ت: 2005م، ص: 293.

ثالثاً: يقول الأستاذ تامر حول الكتابة في الرق: أما كَوْنُ النُّسخة كُتبت على الرَّقِّ، فهذا لا يعني القِدَم كما قد يُظن؛ فقد ظلَّ أهل المغرب يكتبون على الرَّقوق حتى القرن التاسع وربما العاشر، وأهل المغرب يعرفون ذلك، يقول فرانسوا ديروش: فلم يعد الرَّقُّ يستخدم تدريجياً إلا في المغرب الإسلامي، حيث ظلَّ نُسَخ المخطوطات أوفياء له بالرغم من تراجع عددها، حتى القرن الثامن الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وربما أيضاً حتى القرن التاسع الهجري⁽⁹⁹⁾.

وجعل الأستاذ الهامش كالتالي: المدخل إلى علم الكتاب العربي المخطوط بالحرف العربي، فرانسوا ديروش، نقله إلى العربية د. أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن 1426هـ / 2005، (ص 78). لأصحح بأن عنوان كتاب فرانسوا ديروش هو: المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي. وليس: المدخل إلى علم الكتاب العربي المخطوط بالحرف العربي. هذا أولاً.

أما ثانياً: من أين للأستاذ تامر أنهم المغاربة قد ظلوا يكتبون على الرَّقوق حتى القرن التاسع وربما العاشر. لأن الدكتور فرانسوا ديروش حينما ذكر القرن التاسع ذكره بصيغة التمرّيض "ربما"، وأنت جاوزته متأكداً ثم انتقلت إلى القرن العاشر، وهذا خطأ بيّن.

أما عن كون النسخة المكتوبة في الرق لا تعني القدم، فقد أصبت وأجدت، وهذا ما لا يخالفك فيه المحقق موراني ولا غيره، إذ لم يبن الدكتور قدم النسخة على كون أنها كتبت على الرق فقط.

المحور الرابع: النص المحقق:

يقول الأستاذ تامر حول قضية الأخطاء الطباعية ما نصه: "لم أستثن الأخطاء الطباعية، وهي كثيرة؛ لأن المحقق نصّ نصّاً صريحاً على أنه قام بتحقيق النسخة، وكتبها على الحاسوب بنفسه فأخرجت على الصورة التي يجدها القارئ".

ولكن الأستاذ الجبالي لم ينتبه إلى أنه هناك أخطاء أخرى لا يتحمل تبعاتها المحقق، وإن كتب النسخة على حاسوبه، وهي أخطاء الصف في دور النشر، وكيفيك للاستدلال عن ذلك بما كان يرويه لنا الأستاذ الراحل عصام الشنطي أثناء محاضراته عن أخطاء الصف الكارثية في مكتبة دار الكتب العلمية وصنيع بيضون في ذلك. ثم قال الأستاذ تامر: "وقد تّبّعت على أهم الأخطاء التي تَصُرُّ بالمتن المحقّق، وتُحِيل المعنى". لأقول: قد اشترط الأستاذ على نفسه التنبيه على الأخطاء التي تَصُرُّ بالمتن المحقّق، وتُحِيل المعنى، والمتمعن فيما أورده الأستاذ خلاف ذلك البتة.

1: يقول الأستاذ الجبالي: " نجد على غلاف النشرة اسم المؤلف كُتب بخطّ تعلّيق بهذا الضبط: « عبد الله بن وهب بن مُسلم القرشي »، أي إنه ضبط كلمة (وَهَب) بفتح الواو والهاء، وتسكين الباء. وكذلك ضبطها على

(99): المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، فرانسوا ديروش، نقله إلى العربية د. أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ت: 1426هـ / 2005م، ص: 78.

الغلاف الداخلي للنشرة. وهذا الضبط غير صحيح، وصوابه (وَهَب) بفتح الواو وتسكين الهاء وخفض الباء، ولم أقف على خلاف في هذا الضبط".

لو توقف الأستاذ في تخطيطه المحقق في ضبطه لاسم المؤلف لسلّم له، أما أن يقول: ولم أقف على خلاف في هذا الضبط، فهذا ما لا يرتضى.

قال في الصحاح (1/ 235): وهبْتُ له شيئاً وَهْباً وَهْباً بالتحريك، وقريب منه في "تاج العروس" (1/ 507)، ونقل الجوهري (1/ 236): أن وَهَبَ بن مُنَبِّه تسكين الهاء فيه أفصح، وفي "التاج" (1/ 509): وأما وَهَبَ بن منبه التابعي المشهور فإنه بالتسكين وهو الأفصح، وقد يحرّك.

فلم الجزم والجرأة وعدم الإنصاف ؟!!!. كما أنه لي أن أسأل: وهل هذا مما يضر بالمتن أو يخل بالمعنى على ما اشترطت أنفاً؟

2: يقول الأستاذ تامر: " قال (ص: 20، س: 6): « وإن أخذته الإمام من قبل توبته ويروعه، رأى فيه رأيه... » اهـ. قلت: قوله: (ويروعه) لعلها: « ورجوعه »".

قلت: بل هي يروعه كما أثبتتها المحقق، وهي بمعنى رجوعه، من فعل رَاعَ الإنسانُ أو الحيوان رَيْعاً : عاد ورجع، يقال: وَعَظْتُهُ فَأَبَى أَنْ يَرِيعَ، وهربت الإبلُ فصاح عليها الراعي فراغتُ إليه. وانظرها في القواميس فإنها كثيرة.

3: يقول الأستاذ تامر: " قال (ص: 39) السطر الأخير: « يخرجون على خَيْرِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ » اهـ. هكذا ضبطها بضم الفاء، وقد تتبعْتُ كل ألفاظ الحديث فوجدتُ أن الروايات اختلفت في (خَيْرِ فُرْقَةٍ) على أقوال: منها: « يخرجون على حين فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ »، وهي رواية البخاري (3610)، وغيره.

ومنها: « يخرجون على حين فترة مِنَ النَّاسِ »، وهي رواية الطبري والبغوي... ومنها: « يخرجون على خَيْرِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ »، قال الحافظ ابن حجر (الفتح 6/ 619): وفي رواية الكُشْمِيهَنِي « على خَيْرِ » بخاء معجمة وراء، أي أفضل، و « فُرْقَةٍ » بكسر الفاء، أي: طائفة، وهي رواية الإسماعيلي. اهـ.

ولم يُشِرْ إلى الخلاف في اللفظ، مع أنه خرّج الحديث، وأبى إلا أن يحرّفها بضم الفاء!.

أقول: تصويب الأستاذ الجبالي كان فيه مجيداً، غير أنه لا نرتضي منه اتهام الدكتور بتقصيد التحريف، وليسعنا القول: فليتدارك الأمر في الطبقات القادمة، إذ أنه خطأ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما لا نرتضيه.

4: وأصل لقاعدة عجيبة جعلها من المعلوم المشهور فقال: " ومعلوم أن ترتيب المراجع يجب أن يكون بحسب وَفَيَاتِ مؤلفيها". فمن أين لك هذا اللازم وهذه المعلومة التي جعلتها شبه اتفاق بين أهل الصنعة ؟؟؟.

وما رأي الأستاذ فيمن جعل ترتيب قائمة المراجع بهذه الطرق:

1: طريقة الترتيب الألفبائي حسب أسماء المؤلفين.

2: تقسيم القائمة قسمين: أحدهما: يحتوي على المصادر حسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلفيها، وثانيهما: يحتوي على المراجع حسب الترتيب الألفبائي لأسماء مؤلفيها أيضاً.

3: طريقة تصنيف المصادر والمراجع حسب الموضوعات التي تعالجها، وترتيبها داخل كل تصنيف وفقا للترتيب الأبجدي.

4: طريقة الترتيب حسب نوع المصدر أو المراجع، وهذه الطريقة لها أساليب متعددة كالآتي:
أولاً: الكتب. ثانياً: الدوريات. ثالثاً: متنوعات.

أو وفقاً للأسلوب الآتي:

أولاً: المستندات العامة. ثانياً: الكتب. ثالثاً: الدوريات. رابعاً: التقارير. خامساً: الأبحاث غير المنشورة. سادساً: مصادر أخرى.

وإذا كانت المراجع أو المصادر بعدة لغات، فينبغي ذكر كل مجموعة بشكل مستقل عن المجموعة الأخرى، مثل -:
المصادر والمراجع باللغة العربية - المصادر والمراجع باللغة الإنجليزية - المصادر والمراجع باللغة الفرنسية وهكذا.
5: يقول الجبالي: " (ص: 48، س: 9، 8): ذكر ثلاث آيات من سورة الصافات دون أن يفصل بين الآيات؛ وذلك لأنه لا يكتب الآيات برسم المصحف، وهذا عيب ولا يصح. وانظر الحاشية (رقم 93) وفهرس الآيات (ص: 113)."

والناظر في كثير من مخطوطات التراث العربي الإسلامي، ليجد الكثير منها لا يكتب الآيات القرآنية برسم المصحف، وانظر في ذلك نسخ مخطوط "أنوار التنزيل" للبيضاوي وحاشية القاضي زاده وغيرها - على اعتبار ممارستي وتحقيقي لها -، فهل لنا أن نعد هذا عيباً ولا يصح في حقهم؟ أم أن الأمر يتعلق بشخص الدكتور موراني... لا أخاله إلا كذلك.

6: يعلق الأستاذ تامر على سقط وقع للدكتور موراني بالقول: "قال (ص: 49، س: 5): « استشارني عمر بن عبد العزيز فقال لي « اه. قلت: في صورة المخطوط (ص: 21: مقدمة، س: 21): « استشارني عمر بن عبد العزيز فيهم فقال لي «، فأسقط كلمة (فيهم).

أقول: قوله: فأسقط كلمة (فيهم)، تدل على التقصد وإرادة الإسقاط، أما أن تكون سقطت سهواً ونسياناً وزلة كتابة، فهذا محال ومتعذر، والسبب أنه مستشرق، تلصق به كل تهمة. ولنا أن نتساءل: لم أسقط الدكتور موراني كلمة (فيهم)؟ تراه أراد إخفاء أمر عقائدي أم فقهي أم ماذا؟؟!!

7: وما بقي في من ملاحظات في هذا المحور عزفت عنها، إما لأن نبرتها نبرة شدة وتسويد - كما أكثر منها هو في رده على موراني - وإما رأيت في بعضها أن الحق فيها للأستاذ تامر وهي حقا أخطاء وقع فيها الدكتور موراني.

المحور الخامس: الفهارس:

1: يقول الأستاذ تامر: "أما فهرس الأعلام المترجم لهم: فلا أراه إلا تسويداً للكتاب، وليس فيه أية فائدة، فقد شغلت بعض التراجع أكثر من صفحة، كترجمة عبد العزيز الماجشون".

أقول: لكل محقق منهج خاص يمليه عليه نوع الكتاب الذي هو بصدد نشره، ووضع فهرس للأعلام المترجم لهم، لا أراه تسويدا للكتاب كما زعم الأستاذ، بل أراه زيادة بيان وحرص واهتمام ونفع أفاد بها المحقق نشرته، وسهل به على المستفيد من كتابه، وهذه هي لب صناعة الفهارس.

وقد نبّه أهل الصنعة التحقيقية على هذا الأمر مرارا وكرار، في كتبهم حول التحقيق ومميزاته، في فن الفهرسة بالضبط.

2: يقول الأستاذ الجبالي: "قال في ترجمة ابن قُسيط، وأنقلها بنصّها، قال: «كان فقيهاً ثقة، وكان ممن يُستعان به على الأعمال لأمانته وفقهه. وكان كثير الحديث» اهـ.

وعندما قرأت هذه العبارة قلتُ في نفسي: مَنْ تراه من علماء الجرح والتعديل يقولها. فلم أجد جواباً. ولما رجعت إلى ترجمة الرجل، وجدتُ هذه العبارة في «تهذيب الكمال»، وسياقها كالآتي: «قال إبراهيم بن سعد عن محمد ابن إسحاق: حدثني يزيد بن عبد الله بن قُسيط وكان فقيهاً ثقة، وكان ممن يُستعان به على الأعمال لأمانته وفقهه. قال الواقدي وكاتبه محمد بن سعد ومحمد ابن عبد الله بن مُنَمَّر وعمرو بن علي والترمذي: مات سنة اثنتين وعشرين ومئة. زاد ابن سعد: بالمدينة، وكان ثقة كثير الحديث» اهـ.

ومحمد بن إسحاق وكذلك ابن سعد لا يُكثر بأقوالهم في الرجال إذا كان عندنا قولٌ للإمام أحمد أو أبي حاتم أو أبي زُرعة أو ابن مَعِين، فما بالنا إذا خالفا هؤلاء الأئمة المعترين! وعلى كلِّ فابن قُسيط قال فيه الإمام أحمد: إن صاحبنا ليس عندنا بذلك، يعني: يزيد بن عبد الله بن قُسيط، كما نقل ابن حجر عن ابن جَبَّان أنه قال: ربما أخطأ. وقال أبو حاتم الرازي: ليس بالقوي. اهـ. فالدكتور موراني ليس لديه أولوية في نقل أقوال العلماء!

أقول: عجبت حقاً من هكذا تأصيلات وتقعيدات، الموجّهة فيها مدرسة الرجل وترجيحاته الحديثية، فقد علّم الأستاذ من كلام موراني أنه أجمل القول وركّبه في ترجمة ابن قُسيط، بالقول: "كان فقيهاً ثقة، وكان ممن يُستعان به على الأعمال لأمانته وفقهه، وكان كثير الحديث". وهي ترجمة مركبة من مجموع كلام صاحب "تهذيب الكمال"، وابن سعد صاحب "الطبقات". وهو صنيع مشهور عند أهل الصنعة الحديثية، وانظر "سير أعلام النبلاء" ترى منه الكثير. فعلام يعجب الأستاذ تامر من صنيع موراني في نشرته، وقد سبقه لها الكثير.

ثم إن قولكم "... ومحمد بن إسحاق وكذلك ابن سعد لا يُكثر بأقوالهم في الرجال إذا كان عندنا قولٌ للإمام أحمد أو أبي حاتم أو أبي زُرعة أو ابن مَعِين، فما بالنا إذا خالفا هؤلاء الأئمة المعترين"... إن قولكم هذا نسفُ لمراتب علماء الحديث وطبقاتهم، وأن القول دوماً بأقوال من ذكرت وأحكامهم، وأن علم الجرح والتعديل عليهم هم الثلاثة فقط قائم. ونعلم أن ابن سعد في نفس طبقة ابن حنبل، أي من المعتدلين. ثم أن الدكتور موراني ليس بصدد التجريح والتعديل، بقدر ما هو بصدد التعريف وأقوال الأئمة فيهم، فجمع وركب دون ترجيح أو تبيين.

ثم وجب علي تنبيهكم إلى الهامش الذي وضعتم في ترجمة يزيد بن عبد الله بن قُسيط حيث كتبتم : " العلل ومعرفة الرجال (215/2)" (هكذا) . وهو ليس بهامش عند أهل الصنعة التحقيقية.

3: يقول الأستاذ تامر عند ترجمة المثنى ما نصه: " يقول في ترجمة المثنى (ص172): اختلفوا فيه؛ قال بعضهم إنه كان ضعيفاً، وقال آخرون يُكتب حديثه ولا يترك. اهـ. قلت - تامر -: يبدو أن المحقق فهم من قولهم: يكتب حديثه، أن ذلك يعني توثيقاً مطلقاً للراوي.

قلت: بل يفهم منه ما قاله الذهبي في "الميزان": من أن قول الدارقطني «لا يترك»: «ليس بتجريح»⁽¹⁰⁰⁾. ومن قول أبي حاتم «يُكتب حديثه، ولا يُحتج به» أي يُكتب حديثه في المتابعات والشواهد، ولا يُحتج به إذا انفرد. فليس بتجريح مطلق، ولا بتوثيق مطلق.

4: يقول الأستاذ عند ترجمة مسلمة بن علي: " قال في ترجمة مسلمة بن علي (ص176): « أسقط الحارث بن مسكين اسمه في الأسانيد عند روايته للكتاب بسبب ضعفه » اهـ إلى أن قال: " كما أن الحارث بن مسكين، ثقة ثبت، لا يصحُّ قُدُّه إلا بدليل".

قلت: وقد بحث في كتب الجرح والتعديل عن هذه التزكية بهذا اللفظ " ثقة ثبت " ولم أجدها، والذي وجدته قول الذهبي في "السير": وقال يحيى بن معين: لا بأس به. وقوله: الحارث بن مسكين خير من أصبغ، وأفضل. وقال النسائي: ثقة مأمون⁽¹⁰¹⁾.

ولنا أن نسأل الأستاذ: من أين لك بهذه التزكية وهذا اللفظ؟ ولما أنكرت على الدكتور ما أنت فاعله!!!

5: ولنا أن نقول أيضا في ختام هذا المحور، أن الأستاذ الجبالي نسي ترقيم صفحات رسالته الموسومة بالرد العلمي، لذا بقيت حائرا في كيفية الإحالة على كلامه.

كما لا نغمت حق الأستاذ تامر، بأن نقول أن مجموعة كبيرة من نقاداته الموضوعية كانت صائبة وفي محلها، وتتم عن علم وفقه في التحقيق، غير أن فيها من الملاحظات ما قد بيناه، وهذه هي صنعة الإنسان، أكانت عربية إسلامية أم غربية استشراقية.

خاتمة :

لا يعرف فضل أهل الفضل إلا أهل الفضل، والشكر عبادة، بهذا المنطق وحده لن يُغمت حق الدكتور ميكلوش موراني، وأمثاله من رواد المدرسة الاستشراقية وعملهم وسعيهم في نشر تراثنا العلمي المالك.

(: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: عبد الفتاح أبو سنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 100) 01، ت: 1995م، ج: 02، ص: 40.

(: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ط: 01، ت: 1422 هـ / 2001م، ج: 12، 101) ص: 56.

ولا يمنعنا هذا من التنبيه والتصويب لما نراه نحن في عقيدتنا ومنهجنا خطأ أو تأويلاً أو تحريفاً، ولكن بمنطق العلم والأخلاق لا غير.

كما لا يُعَدُّ الأستاذ الجبالي شكراً على غيرته وسعيه للتنبيه والتصحيح، فبضاعته العلمية تؤهله لذلك، غير أن الإنصاف مطلب عزيز، حتى مع المشتغلين بترائنا من المستشرقين القدامى والمعاصرين. وكل جهد بشري فقد يعتري هذا العمل بعض الأخطاء، والعذر أي في طريق العلم أسير، وأختم بما ختم به الدكتور مقدمة تحقيقه لجزء "تفسير القرآن" من "الجامع" لابن وهب بأن أقول كما قال: ودفاعاً عن الذات لا يسعني إلا أن أقول: الكمال غاية لا تدرك.

والحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع:

- 1: أصول نقد النصوص ونشر الكتب، برجستراسر، تقديم: محمد البكري، دار المريخ، الرياض، دط، ت: 1982م.
- 2: الجامع تفسير القرآن، ابن وهب المصري، تحقيق: ميكولوش موراني، دار الغرب، بيروت، الطبعة الأولى، سنة: 2003م.
- 3: سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ط: 01، ت: 1422هـ / 2001م.
- 4: كتاب "المحاربة" من "موطأ" الإمام ابن وهب المصري، ميكولوش موراني، دار الغرب، بيروت، الطبعة الأولى، سنة: 2002م.
- 5: كتاب المحاربة من الموطأ، لابن وهب، بتحقيق ميكولوش موراني، تامر الجبالي، موقع الألوكة، دط، دت دم.
- 6: كيف نعلم الخط العربي، معروف رزيق، دار الفكر، بيروت، ط: 06، ت: 2010م.
- 7: لمحة تاريخية سريعة حول تحقيق التراث ونشره، وإسهام إيران في ذلك، الشيخ عبد الجبار الرفاعي، مجلة تراثنا العددان الأول والثاني [41 و 42] السنة الحادية عشر / محرم - جمادي الآخرة 1416 هـ.
- 8: المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، فرانسوا ديروش، نقله إلى العربية د. أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ت: 1426هـ / 2005م.
- 9: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: عبد الفتاح أبو سنة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 01، ت: 1995م.

مواقع عنكبوتية:

- × <http://www.tafsir.net/vb/forum17/thread3015-3.html>
- × <http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad29partie7.htm>